٢

الطريق الجديدة ونتائجها

١٨٩٠ – ١٨٩٧

obeikandl.com

وقعت استقالة بسمرك في نفس الوقت الذى حل فيه ميعاد تجديد معاهدة الضمان بين الروسيا والمانيا فلما لاح أن مركز المستشاريات مزعزعا توجه اليه السفير الروسي في برلين الكونت شوفالوف في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٠ ليسأله رأيه في مد أجل الاتفاقات المعقودة في سنة ١٨٨٧ فأعرب له بسمارك عن رغبته الأكيدة في الاستمساك بتلك الاتفاقات . كذلك كان الامبراطور الشاب غليوم الثاني مؤيداً لتجديد المعاهدة على الرغم من شيء من الكراهية الشخصية كان يضمره للقيصر اسكندر . وهكذا أمكن شوفالوف أن يسافر الى بطرسبورغ ليحصل على الموافقة على مد الاتفاق السري ست سنوات . فلما عاد لم يكن بسمرك في مركزه فقطع الروس المفاوضات في الحال . بيد أن الامبراطور استدعى السفير اليه في ٢١ مارس وأكد له انه مصمم كل التصميم على أن لايحيد عن موقفه الذي التزمه الى الآن حيال الروسيا ، وبذا لاح أن مد المعاهدة قد بات مضمونا بخاصة ووزير الخارجية الروسية جيرس قد أعلن مرة رضاءه عن هذا المد .

على انه حدث في برلين فجأة تحول حاسم إذ نصح خلفاء بسمرك باتباع « طريق جديدة » في السياسة الالمانية . فكان أول مقتضيات هذه الطريق الجديدة أن يصرف النظر عن معاهدة الضمان مع الروسيا وقد أبديت اعتبارات مختلفة في بيان اسباب هذه الاجراءات تضمنتها بحذافيرها مذكرة للكونت ايرشم وكيل وزارة الخارجية مؤرخة في ٢٥ مارس سنة ١٨٩٠ إذ جاء في هذه المذكرة : أن المعاهدة خليقة أن تجر المانيا الى حرب فضلا عن انها تعد بمثابة خديعة للنمسا وتمكن الروسيا من افساد علاقات المانيا بمملكة الطونة وبايطاليا وانكلترا والباب العالى . وذلك دون أن تشتمل على ما يضمن عدم

اعتداء فرنسا . هذا الى انها تجعل الروسيا هي التي تحدد زمن الحرب التي قد تنشب في المستقبل فى أوروبا . وبغض النظر عن هـذه الجوانب العامة فان هذه المعاهدة مما لا يمكن تنفيذه عملياً لان أى تقدم من ناحية الروسيا نحو بلغاريا سيحمل النمسا والمجر على الوقوف فى وجهه ويجر المانيا تبعاً لذلك الى ميدان القتال »

وفى ٢٧ مارس سنة ١٨٩٠ أصـدر الامبراطور عقب اجتماعه بالمستشار الامبراطورى الجديد الجنرال فون كابريفي أمره الى الجنرال فون شفينتز سفير المانيا فى بطرسبورغ بأن يصرح فى الموضع المناسب « بأن هذا الطرف (برلين) يريد أن يحافظ مع الروسيا على أطيب العلاقات لـكن تغيير الاشخاص الذى يحدث في الوقت الحاضر فى المانيا والذى يحملنا على أن نتوخى الهدوء وان لا ندخل فى مفاوضات بعيدة المدى ، سبب فى ذاته لان نرى من الانسب أن لا نجدد المعاهدة »

بهذا اتخذ قرار على أعظم جانب من الأهمية وهدم جانب مهم من ذلك البناء الذي شاده بسمرك حول المانيا تدريجاً بهمة لاحدها ليضمن لالمانيا الامن من جهات كثيرة ، وقضى على تلك الرابطة السرية باكبر دولة عظمى على الحدود الشرقية أن لا تقوم لها قائمة بعد الآن

وليس شك فى ان الآراء الجوهرية التى سبق ايرادها ليست كل السبب الذي حمل رجال وهلمشتراسه الجديدين على مسلـكهم هذا فان ثمة أسـبابا أخرى وبواعث شخصية ربما كانت أقوى تأثيراً فيما اتخذ ، فضلا عن انها تلقي على أخلاق من باتوا من ذلك الحين أصحاب النفوذ الا كبر نوراً واضحاً

لقد اعترف صراحة خليفة بسمارك على مركز المستشار ، ذلك الجنـدى الشريف ذو المواهب الجنرال فون كاريفى الذي لم تكن له خبرة بالسياسة ، بأن المسألة عنده كانت أن يجعل فن سلفه العظيم — ذلك الفن الصعب — سهلا بما يمزجه به من كفاياته هو التى كانت دون كفايات سـلفه بمراحل . فلقد

قال لبسمرك نفسه : ـ « ان رجلا مثلك يستطيع أن يلعب بخمس كرات دفعة واحدة بينما غيرك يحسن اذا اقتصر على كرة أو اثنتين » وبالمثل ماجاء في كتاب الكونت برشم وهو : « ان سياسة معقدة كهذه (يعني سياسة معاهدة الضمان التي كانت قائمة الى جانب المحالفة الثلاثية) كان نجاحها موضعاً للشك في كل وقت ، لايسعنا أن نتابع السير عليها بعد اعتزال رجل الدولة الذي كان يستند في عمله الى ثلاثين سنة خبرة والى نفوذ مغناطيسي في الخارج » وهذه كلمات تدل على اعتراف صريح بقصر الباع يزيد في أثره السيىء بالنظر الى المتاعب الهائلة التي كان يسببها لكل زعيم مركز المانيا المعروف ، انه يظهر في الوقت عينه أن هذه المتاعب لم تكن تقدر في نطاقها الحقيقي إذ كان أولو الشأن يعملون على معالجتها بوسائل أخف مما كانت تعالج به الى وقتنا ذاك

على أن الخليفة الحقيقي لبسمرك باعتبار كونه مصرف الشؤون السياسية الالمانية لم يكن كبريفي بحال من الاحوال بل كان رجلا في وزارة الخارجية هو المستشار المحاضر فريتس فون هولشتين . وقد ترقى هذا السياسي في عهد المستشار الامبراطوري الاول وظل مدة طويلة متصلا به اتصالا وثيقاً حتى طرأ على علاقتهما ما كدرها فجعل يتملك أصغر الاثنين بغض شديد وأخذ يجد على رئيسه الذي اعتاد أن يأمر فيطاع وجداً لم يقلل من شدته انه كان خفياً . فكاد له في الخفاء ومد له من الدسائس حبالا ساعدت على سقوطه بصورة ماسة . ثم كان بعد ذلك أهم قوة محركة في مناهضة معاهدة الضمان والعمل على عدم تجديدها . ولا بد أن الرغبة في الحيلولة دون رجوع البرنس أوتو كانت ذات أثر قوي في عمله . لذلك كان لابد من السير بعزم في « الطريق الجديدة » وقطع العلاقة الروسية التي كان يعنى حتى حينذاك بتعهدها والمحافظة عليها . فجعل قسم وزارة الخارجية السياسي الذي كان هولشتين روحه يقدم المذكرة تلو الاخرى بالنصح بتنكب الطريق التي كانت الامور سائرة فيها الى ذلك الحين .

ولقد وقع هذا الموقف الالماني من أنفس الروس وقعاً سيئاً منذ اللحظة الاولى . وإذ كانوا في بطرسبورج قد تدللوا عقب خروج بسمرك وقبل أن يعلم قرار المانيا اعتقاداً منهم بأن المانيا تريد مد أجل معاهدة الضمان ، فقد أصابهم طبعاً شيء من الذهول عند ماصدع السفير الالماني فون شفينتز بالامر الامبراطوري الآنف الذكر أي الرفض . وقد حاول المسيو دي جيرس وزير خارجية الروسيا في الاسابيع التالية محاولات جديدة ابتغاء الوصول الى عقد المعاهدة مع ذلك . والمسيو دي جيرس هو أحد المقتنعين بضرورة مصادقة المانيا وهو الذي حمل قيصره اسكندر الثالث على أن يعقد الاتفاق السري مع المانيا معلناً الحرب العوان على خصوم ذوي نفوذ كانوا يطلبون انضمام دولتهم الى فرنسا . فكان يشير محذراً الى أن بلاده ستصبح منعزلة ، وانه لابد من البحث ما أمكن عن جهة يستند اليها . وكثيراً ماقدم اقتراحات وعرض عروضاً تدل على تساهل بعيد المدي ، ولكنه كان في كل مرة يصطدم برفض برلين التي لم تتحول عنه . وكان عبثاً حض الكونت فون شفينتز أيضاً على عدم رد يد الروسيا الممدودة ، فان كل العروض كانت ترفض في أدب وبصورة ودية ولكن نهائية .

لقد كانت عواقب ذلك الفعل الحاسم الذى أقدم عليه الرجال الجديدون سريعة ، فقد تحركت رأساً تلك القوى المظلمة التي كانت ترمي الى البطش بألمانيا والتي أراد بسمرك بتساهلاته السخية حيال الروسيا أن يحول دون انطلاقها ولقد أمكن السفير الفرنسي في بطرسبورغ في ٢٤ أغسطس ١٨٩٠ أن يبعث تقريراً يقول فيه ان التقرب بين فرنسا ودولة القياصرة يتحقق تدريجاً . ورأى ولاة الامور في باريس ان اللحظة التي يحق للجمهورية أن تأمل فيها الخروج من عزلة فرضها عليها بسمرك عشرين عاما وأن تكسب في القارة حليفا قويا باتت قاب قوسين . وسرعان مانشطوا الى خطب ود الدولة السلافية التي هشت لهذه المساعي وبشت وان كان ذلك في شيء من الحيطة والحذر . ففي

٢٣ يوليه ١٨٩١ أدت عمارة بحرية فرنسية بقيادة الاميرال جير في كرونستات زيارة للروسيا كانت مصحوبة باحتفالات عديدة . وفي اليوم التالي قدم وزير خارجية فرنسا اقتراحا بعقد محالفة بين الدولتين . وفي ٢١ أغسطس من نفس السنة كان « الاتفاق الودي » العام أمراً واقعيا وكان بموجبه على فرنسا والروسيا أن تتفاهما في المستقبل على المسائل السياسية الهامة وأن تتفقا معا على الاجراءات التي تتخذ اذا ما تعرض السلام للخطر .

بذلك تمت بالفعل أول خطوة في سبيل وضع الاساس للوفاق الثلاثي الذي لم يلبث أن صار عاملا حاسما في السياسة الاوربية . وقد ظلت فرنسا تثابر حتى حصلت بدل الاصبع الذي كان ممدودا لها على اليد كلها . فقد كانت لا تني عن السعي وراء عقد اتفاق عسكري ظل المسيو جيرس وزير الخارجية الروسية يناهضه طويلا . ففي سنة ١٨٩٢ وضع وزير الخارجية ريبو ووزير الحربية فريسينيه مشروعا لهذا الاتفاق في باريس كان ينم بكل وضوح عن الغرض المتوخى من هذا المشروع بأكمله فقد كان القصد في حالة ما اذا اصطدمت الروسيا وفرنسا بالمحالفة الثلاثية أن تلقى كلتاهما بكل قواها في الميدان لايقاع الهزيمة بدول المحالفة الثلاثية اولا . لكن بطرسبورغ لم ترض بهذا وان كانت قد قبلت مشروعاً جديداً وقعه في ١٧ اغسطس اوبرتشيف وبواز ديفر رئيسا هيئة اركان الحرب في كل من الدولتين وكان بمثابة اتفاق ذي صبغة دفاعية (١)

وهكذا تم في الخفاء تبدل اساسي في مركز اوروبا السياسي بحذافيره . فنجحت فرنسا في الخروج من عزلة كانت مضطرة منذ سنة ١٨٧١ الى التزامها ، وانضمت الروسيا بعد إذ خشيت التعرض للعزلة عقب رفض تجديد معاهدة الضمان الى الدولة العظمى الواقعة في غرب اوروبا . فانقسمت اوروبا من ذلك

(١) انظر الوثائق

الحين الى حزبين فرنسا والروسيا فى جانب ودول الوسط وهي المانيا والنمسا والمجر وايطاليا واليها رومانيا في الجانب الآخر . فبعد ان كانت كفة المانيا هي الراجحة اصبحت هنالك حاله جديدة يمكن نعتها بحق انها توازن بين الدول وتعادل فى الاتفاقات المعقودة بينها . على ان المانيا تعرضت لخطر الحرب فى ميدانين وهو ما كان بسمرك يعمل على درئه بتلك الهمة . ولا يخفى ان طبيعة الحزبين تختلف احداهما عن الاخرى من اول الامر . فلقد كانت كبرى دول الوسط وهي المانيا ذات مصلحة اى مصلحة فى المحافظة على السلام . وذلك لسبب بسيط جداً هو أنها لم تكن تسعى الى أغراض ما خارج حدودها الاوروبية . فالحالة التى كانت سائدة إذذاك كانت تفي بحاجاتها وتضمن لها مركزاً سياسياً وقوة اقتصادية . ووثائق المانيا التى ترجع الى ماقبل الحرب ليس فيها على انساع نطاقها موضع واحد يمكن ان يستخلص منه ولو بصفة غير مباشرة ان برلين كانت تحدوها فى اية ناحية نيات فتح خفية وفى هذا كان الطريق الجديد يتبع نفس الخطة التى اختطها بسمرك .

فلقد كانت كلما ابدت النمسا والمجر رغبات تنم عن الميل الى التدخل فى شئون الشرق الادنى لا تتأخر ولها مشتراسه عن التصريح بأنها لا دخل لها فى مغامرات كهذه . وفى سنة ١٨٩٦ عند ماحل موعد تجديد المحالفة الثلاثية خمس سنوات جاءت فينا باقتراحات تبغي بها تغيير نص المعاهدة وترمي الى اكتساب المانيا لتأييدها فى الحصول على غايات ايجابية في البلقان اذ كان قادة مملكة الطونة يخشون أن يعظم نفوذ الروسيا في بلاد البلقان الى درجة تهددهم وأن تفتح دولة القياصرة الاستانة اذا انحلت تركيا فأرادوا ان يستوثقوا من امكانهم الزحف هم أيضا فى اللحظة الموعودة . فجاء موقف المانيا فى كلمة وجيزة واضحة لمستشار الامبراطورية فى ذلك الحين البرنس فون هوهنلوهه وهي موجودة فى مذكرة له بتاريخ ٢ مارس ١٨٩٦ ونصها « اننا مستمسكون

بالمحالفة الثلاثية جداً لكننا لانريد أن نجعل منها وسيلة لتحقيق خطط معينة للنمسا في الشرق فيجب ان تقنع النمسا بصيغة المحالفة الدفاعية اذا كانت لاتريد أن تسير الى الفناء » . فبهذه الروح ظل العمل بالمعاهدة كلما كان الامر يتعلق بمملكة هابسبورغ . أما حيال ايطاليا اقلق اعضاء المحالفة نفسا واقلهم ضمانا فى ساعة الشدة فقد رأت الحكومة الالمانية نفسها مضطرة فعلا فى سنة ١٨٩١ الى التساهل معها فى امور بعينها مما أدى بناء على رغبة رومه الى إدخال نصين جديدين على اتفاقية المحالفة يسايران مصالح الحليفة الجنوبية فى البحر الابيض المتوسط اكثر من ذي قبل . فقد كان الامر يتعلق فى احد هذين النصين بالمحافظة على الحالة فيما يختص بشواطىء الادرياتيك وبجرايجه وجزرها وفى النص الثانى بشبه جزيرة برقة وطرابلس وتونس . ففيما يتعلق بالمناطق الاخيرة تعهدت المانيا بتعضيد ايطاليا فى أحتلال إحدى جهاتها اذا تزعزعت الحالة القائمة . وقد تساهلت المانيا فى الامرين وان كان على غير ارادتها وذلك تفاديا من فقدان حليفتها فى الجنوب اذا لم تجبها الى رغباتها . وهذه الظاهرة فى سياسة برلين كانت تبدو دائما كلما ظهرت سحابة في الافق الاوروبى تهدد بوقوع قتال . ذلك ان السلام كان فى مصلحة المانيا ولازمة من لازمات هذه المصلحة . ومن ثم كان سهر الالمان عليه ومحاذرتهم الشديدة ان يكدر فضلا عن محاولتهم التأثير على حلفائهم بتجنب كل مشروع خطر.

على انه كيف كانت الامور فالناحية الاخرى وبعبارة أخرى عند ذلك الفريق الفرنسى الروسى الذى كان قد ظهر ولما يكد . ليس من سبيل الى الشك في ان هذه الناحية كانت تحدوها من بادىء الامر ميول بعينها ترمى الى احداث تغييرات في اوروبا . فقد كانت الروسيا تتوق من قديم الزمان الى تحقيق غرض طالما اشتهته : ذلك أن تلك الدولة السلافية العظيمة كانت تسعى الى ايجاد مخرج الى البحر الى الابيض المتوسط وترغب فى ان تخضع لسلطانها

الاستانة عاصمة تركيا والمضايق التي تربط البحر الاسود بالبحر الابيض المتوسط.

وفوق ذلك كان انصار التآزر مع فرنسا يأملون في اتساع النفوذ الروسي في البلقان وكان دعاة الجامعة السلافية التي كانت تطالب بزعامة الروسيا لشعوب البلقان في الزاوية الجنوبية الشرقية من اوروبا — يحرضون علانية وعلى الدوام ضد المانيا وذلك بقولهم ان المستشار الامبراطوري الالماني اتخذ موقفاً عدائيا لدولة القياصرة وهو مالم يكن حقيقيا بحال من الاحوال. وقد كان هذا دأبهم منذ مؤتمر برلين المعقود في سنة ١٨٧٨ والذي توسط فيه بسمرك في انهاء الحروب الروسية التركية. وعلى كل فقد كانت هنالك مساع تبذل لم تكن تتفق والاحتفاظ بالحالة الراهنة.

وفي فرنسا؟ اننا نعلم أنهم لم يستطيعوا أن يتعزوا منذ سنة ١٨٧١ عن فقدان السيادة التي كانت لهم في أوروبا. كما نعلم أن استرداد الالزاس واللورين كان الامنية الخفية التي كانت تحدو ذوي الوطنية، أمنية لم يكن أحد يذكرها لكنهم كانوا يفكرون دائما فيها. ففي ابريل سنة ١٨٩١ أي في نفس الايام التي كانت تتقرب فيها الجمهورية الى الروسيا وصف الجنرال جاليفيه الفرنسي الحالة بين فرنسا والمانيا، على مارواه الملحق العسكري الالماني في باريس في تقرير له، كما يلي. « ليس أحد في الامتين يريد الحرب لكن كل العقلاء يرون أن لامفر من هذه الحرب من أجل الالزاس واللورين. ومن المؤكد — مالم تطرأ حوادث غير عادية ليست في الحسبان — ان فرنسا لن تكون البادية بيد أنه اذا شهرت الروسيا الحرب على المانيا فلن يكون في وسع حكومة ما أن تمنع فرنسا عن الاشتراك» أما ان هذا الرأي ليس رأي رجل عسكري وحده بل انه يعبر أيضاً عما كان يجول في خواطر الدوائر السياسية فما تثبته الوثائق العديدة التي ترجع الى تلك الايام.

لقد كانت باريس تسعى في سنة ١٨٩١ الى الضغط على روما ضغطاً شديداً ابتغاء الحيلولة دون تجديد المحالفة الثلاثية فقد سئل وزير الخارجية الايطالية روديني من جانب فرنسا (وهذا وارد في أقوال له): — « هل ايطاليا ملزمة

مساعدة المانيا في حالة ما اذا دخلت فرنسا حربا لاسترداد الالزاس واللورين »
وفي سنة ١٨٩٤ قال ريسمان السفير الايطالي في باريس مايلي : « ان فكرة اعادة
السيادة الفرنسية في أوروبا لا تزال حية في قلوب الفرنسيين أجمعين بلا مراء ...
فقد أراد الفرنسيون أن ينتظروا أولا ريثما ينتهي أجل المحالفة الثلاثية أملا
منهم في أن لا تتجدد هذه المحالفة ثانية في سنة ١٨٩٦ وهذا يدل على أن
ذكرى سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ لم تتلاش بعد ففرنسا تريد أن تحارب في المرة
المقبلة وهي واثقة تماما بقوتها الحربية » وأوضح عبارة من هذه الكلمات
مافاه به رئيس الوزارة الفرنسوية برجوا سنة ١٨٩٦ للمدير العام بوديو الذي
بعثه كريسبي رئيس الوزارة الايطالية الى باريس حينذاك إذ قال له صراحة
« انه ما من حكومة فرنسية يسعها أن تجامل ايطاليا أو تتقرب اليها مادامت هذه
باقية في المحالفة الثلاثية . ان الرأى العام الفرنسي والسياسة الفرنسية ...
سيكونان مهما ظهر على السطح من أمور مسيرين من الاعماق بفكرة واحدة
هي استرداد الالزاس واللورين فهذه المسألة مسألة الالزاس واللورين ستقدم
دائما على ماعداها الى أن تحل . وما دامت ايطاليا بمحالفتها لالمانيا تؤيد
المطالب الالمانية في الالزاس واللورين فلن تستطيع فرنسا أن تتساهل معها
في أية نقطة بل يجب أن تعمل ما استطاعت على أن تجعل حياتها مريرة » وليس
أوضح من هذا في الاعراب عن الباعث الذى كان يحرك الموقف في بلاد السين
ذلك الموقف الذي كان مرعي للانظار . و « استرداد الالزاس واللورين »
لم يكن ليتم إلا بتغيير الحالة التي كانت سائدة إذ ذاك . لهذا كانت في باريس
أيضا ميول محسوسة جدا معادية للسلام . فقد أرادوا أن يترقبوا ساعة
القصاص وان يعدوا العدة ما أمكن من كل جانب ليسيروا في المرة المقبلة « واثقين
كل الثقة » . ومن ثم عقدوا أول ما عقدوا ذلك الاتفاق العسكري مع الروسيا

لقد كانت النقطة الثانية في برنامج باريس كما تؤيدها كلمات بورجوا :
اخراج ايطاليا من المحالفة الثلاثية . ومنذ عام ١٨٩١ ورجال ايطاليا يشكون
شكوى تزايدت على مر الايام من المضايقات التي تعرضت بلادهم لها من جانب

فرنسا . وقد صرح السفير ريسمان الذى أسلفنا ذكره في سنة ١٨٩٣ بقوله : « ان علاقة ايطاليا بفرنسا تسوء على الدوام فان الفرنسيين أخذوا يسعون من سنين سعياً ظاهراً لصرفها عن المحالفة الثلاثية بالاضرار بمصالحها من الناحية التجارية والمالية » وكتب بيلوف ممثل المانيا في روما في ذلك الحين يقول فى شهر يوليه ١٨٩٥ : « ان البارون بلان (وزير الخارجية الايطالية) لا ينى يذكرني في الايام الاخيرة بأن السياسة الفرنسية حيال ايطاليا تجري وراء غرض واحد ، ولا توجهها الا وجهة نظر واحدة وذلك : التفريق بين ايطاليا والمحالفة الثلاثية أو بعبارة أصح ألمانيا . وسعى الفرنسيين الى تحقيق هذا الغرض بالاساءة الى الايطاليين ومحاولة ارهابهم بمعاداتهم والتنكر لهم لا بمحاسنتهم ، غلطة وبعد عن الكياسة . ذلك ان الايطالى كسائح لا فونتين تخلع عنه الشمس الملاطفة معطفه ولا تخلعه عنه الريح الباردة . »

وهكذا كانت السياسة الفرنسية بعد أن زال عنها الضغط الشديد الذى كانت تحدثه يد بسمرك الماهرة تسعى سعياً متواصلا لا الى تقوية معسكرها هي فحسب بل الى الاقلال أيضاً من شأن الفريق المعادى وعرقلة توسعه ما أمكن . فكان القائمون على السين يندفعون الى الإمام في شيء كثير من الضجة لا يأتون من أية وسيلة يحطمون بها نظام المحالفات الذي أقامته ألمانيا لضمان أمنها ، ذلك النظام الذي قام فى وجه الجهود الفرنسية الطموحة سداً منيعاً .

وقد كان أول مافعله ولاة الامور في برلين أن حاولوا توسيع ماتبقى في وسط أوربا بعد أن لم تجدد معاهدة الضمان مع الروسيا — نقول حاولوا توسيع ماتبقى من هذه المحالفات وتكملته من ناحية أخرى وذلك بالسعي الى التقرب من بريطانيا العظمى . فكانت البداية حسنة نوعاما ، إذ عقدت فى أول يوليه ١٨٩٠ معاهدة بين المانيا وانجلتره حصلت بموجبها المانيا على جزيرة هيلجو لاند بينما أعطيت زنجبار للبريطانيين . وهذا فضلا عما اتفق الفريقان عليه من

تحديد مستعمراتهما في أفريقيا . لكنه عقب ذلك بقليل تبين ان انجلترة انما ترى المصلحة في الاستناد الى كتلة وسط أوربا استناداً ضعيفاً جداً . فلما حاولت ايطاليا في سنة ١٨٩١ أن تجعل من الاتفاقات التى تبادلت فيها المذكرات مع بريطانيا العظمى في عهد بسمرك معاهدة محالفة ثابتة الحدود أعلن رئيس الوزارة البريطانية اللورد سالسبوري الى الكونت هتزفلد سفير المانيا في حديث له معه أثبته الاخير في برقية بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٩١ ، انه ـ أى اللورد سالسبوري ـ لا يسعه «بالنظر الى الاحوال البرلمانية وتهيب زملائه» أن يوافق على طلب ايطاليا . وقد تلت ذلك مفاوضات كانت هذه الآراء تعود فيدلى بها فيها . وأيضاً لما أعقبت حكومة المحافظين وزارة للأحرار لم تدم طويلا لم يكن ممكناً حمل وزير خارجيتها اللورد روزبري على ابداء تساهل يذكر . وكل ما أمكن الفوز به هو موافقة كتابية قدمها في خريف ١٨٩٢ وصرح فيها برأيه الشخصى المحض وهو « أنه اذا اعتدت فرنسا على ايطاليا بلامبرر فان مصالح انجلترة باعتبار كونها من دول البحر الابيض المتوسط ودولة الهند ستحملها بطبيعة الحال على تأييد ايطاليا » فهذا التأكيد المبهم كان كل ما أمكن روما أن تبلغه حينذاك .

وتقضت الايام فاذا بين لندن وبرلين احتكاك لا يسر من أجل مسائل تتعلق بالمستعمرات وبخاصة فى أفريقيا . فقد ظهر جلياً تقريباً ان تلك الجزر البريطانية الحاكمة العالم لم تكن تنظر بعين الرضا الى اتساع النفوذ الالماني في مناطق ماوراء البحار فوق ما اتسع ، فأوغر هذا صدر برلين ايغاراً كان يزداد على مر الايام وبات من المتعذر التوفيق بين وجهتى نظر الفريقين . فولهلم مشتراسه كانت تسعى الى ايجاد صلة ثابتة بين المحالفة الثلاثية وانجلتره بينما كان الساسة البريطانيون يدلون في كل مرة على ميل الى اتخاذ دول الوسط مخفراً أمامياً لهم في القارة يدافع عن مصالحهم . وقد كان مركز المانيا فى هذا الشأن سيئاً

جداً لان القارة الاوربية كانت بعد إذ تم التحالف بين فرنسا والروسيا منقسمة الى معسكرين وهذا الظرف بعينه هو الذي مكن بريطانيا العظمى من أن تقف بمعزل عن الفريقين تستفيد من خصومتهما . وبخاصة اللورد سالسبوري الذي عاد الى الحكم سنة ١٨٩٥ فانه سار فى هذه الطريق وعمل على ابقاء دولته فى تلك «العزلة المجيدة» وهكذا كان الى جانب فريقي القارة فريق سياسى ثالث منعزل بنفسه وذلك الفريق هو انجلتره .

لقد سعت المانيا كل سعي لمقاومة هذه الحالة التى كان معناها اضعاف مركزها فوق ضعفه فقصدت أولا الى تحسين علاقاتها بالروسيا من جديد . ففى بدء عام ١٨٩٤ أنهيت حرب جركية ظلت رحاها تدار عدة سنوات مع الدولة السلافية العظمى وقام مقامها اتفاق تجاري ، وبيان ذلك أن خلف كابريفى الذي تولى منصب مستشار الريخ في خريف هذا العام بعينه كان خبيراً بالروسيا وقريبا للبيت القيصري ونعنى به البرنس كودفيج فون هوهنلوهه — شلنجفيرست ، فلما مات القيصر العجوز اسكندر الثالث في أول نوفمبر ١٨٩٤ بدأ الامبراطور الالماني يتبادل مع ابنه نيقولا الثاني رسائل شخصية حارة أملا منه أن ينشر نفوذه على أكبر مقام في بطرسبورغ

وفي مستهل سنة ١٨٩٥ حدث حادث هام : فان خاتمة الحرب اليابانية الصينية فى الشرق الاقصى كانت نصراً باهرا للجزر اليابانية التى كانت تطورت من الوجهة العسكرية تطوراً قوياوالتى كانت تسعى من ذلك الحين الى تثبيت أقدامها فوق القارة الاسيوية بمطالبة الصين بالنزول لها قبل كل شيء عن بورت أرثر وجزء من منشوريا فوق فورموزه وجزائر فيشر . هنا تبين مصرفو السياسة الالمانية « خطر الجنس الاصفر » وكانوا سببا لتبادل الوزارات الآراء فى هذا الشأن، فطالبت الروسيا الدول العظمى بأن تعترض فى طوكيو سوية على نيات اليابان الواسعة النطاق إذ كانت للروسيا أكبر مصلحة فى أن لايكون لها منافس جديد في شرق آسيا حيث كانت تفكر فى نشر سلطانها

دائما ، الامر الذي أفضى الى التنابذ بينها وبين انجلترة فعلا . لكن انجلترة رفضت الاشتراك في هذا العمل رامية بالاريب الى الابقاء على اليابان أولا لتتخذها في مقتبل الايام حليفة لها . أما فرنسا حليفة الروسيا فوافقت وكذلك فعلت المانيا . وفى خلال ذلك كان صلح شيمونوزيكي قد أمضى فى ١٧ ابريل بين الصين واليابان فخصلت اليابان فى القارة الاسيوية على المنطقة التى كان لابد من النزول لها عنها ولكن مصغرة . غير أنها كانت تطالب دائما مسافات مهمة . وفى ٢٣ ابريل رفع ممثلو الروسيا وفرنسا والمانيا الى اليابان حض حكوماتهم لها على أن تصرف نظراً عن شواطىء آسيا . وكان أن استعمل وزير ألمانيا المفوض فى هذا التبليغ لهجة شديدة متخطيا تعليمات برلين فأثار بذلك فى طوكيو شعوراً مراً بالمذلة وهى التى كانت ترى فى احتجاج الدول الاوربية الثلاث حرمانا لها من جانب من ثمار انتصارها . وقد اضطرت اليابان الى الرضوخ والتنزل عما كانت تسعى الى امتلاكه فى آسيا .

ان الاعتبارات التى أدت بالمانيا الى مؤازرة الروسيا مؤازرة قوية في رغباتها في شرق آسيا كانت ترمى في جوهرها الى تحسين مركز المانيا فى أوربا. فقد كانت الفكرة انه اذا نجحت المانيا في « تثبيت الروسيا في شرق آسيا » وبعبارة أخرى في تشجيع الدولة السلافية العظمى على التوسع في الشرق الاقصى ، فان الضغط على مايسمى بالشرق الادنى في الجانب الاوربي ذلك الضغط الخطر يختفى اذ ذاك . كذلك كان يؤمل أن تنصرف دولة القياصرة عن خططها في البلقان وتعدل عن الاستانة فتنتفي بذلك الخصومة بين فينا وبطرسبورغ ويرتفع الخطر عن الجبهة الالمانية الشرقية . وفي الواقع ان عشر السنوات التى تلت كانت تثبت صواب هذه الفكرة ، فان العلاقات بين دول الوسط والروسيا تولاها الهدوء عقب ذلك . اذ اجتمع في سبتمبر ١٨٩٦ القيصر نيقولا الثاني والامبراطور غليوم في سيليزيا واتفق كلاهما على المحافظة

على تركيا بكيانها الذي كانت عليه اذ ذاك . ولم يكن معنى هذا ان الروسيا وقفت مؤقتاً عن السعي الى احداث تغييرات في تلك الجهة بل ان معناه رضاؤها بأن تبقى العلاقة بين البحرين الاسود والابيض المتوسط زمنا ما في أيدي الدولة العثمانية الواهنة حتى لا تأتي على الاقل دولة أخرى وتثبت اقدامها هناك . وقد أعقب ذلك بقليل أي في سنة ١٨٩٧ أن عقد بين النمسا والمجر والروسيا اتفاق تعهدت بموجبه كلتاهما بالمحافظة على حالة الشرق الادنى اذ ذاك . وهكذا تحولت الهولة الروسيا فعلا عن أوربا الى آسيا تطلب فيها أرضا ومخرجا أمينا الى البحر اذا أمكن .

كل هذه الحوادث أثرت في حالة أوربا بأسرها تأثيرا عظيما فتراخى من الجهة الشرقية ذلك الطوق المزدوج الذي ضربته المحالفة الروسية الفرنسية حول المانيا . واضطرت فرنسا ، حتى لا تخسر صديقها السلافي الى الموافقة على تحوله . ولما كانت الجمهورية في نفس الوقت يزداد ما بينها وبين انجلترة من تضارب المصالح من جراء مساعيها الاستعمارية في افريقيا على الاخص ، نشأ شيء يشبه التقرب بين دول القارة الاوربية حتى لم تعد عزلة انجلترة تبدو عزلة مختارة فحسب بل ظهرت كأنها وحدة اجبارية . وكان على الاثر أن انصرف ولاة الامور في برلين عن الجزر البريطانية المتدللة بسبب فشل المساعي التي بذلت للتقرب منها . فكانوا يتحدثون بتأليف عصبة في القارة ضد بريطانيا العظمى يحدوهم بالتأكيد غرض غير ظاهر هو حمل انجلترة على التحالف معهم مؤملين أن تأتي انجلترة يوما فتطلب من نفسها ذلك التقرب .

وليس شك في أن الحكومة الانجليزية قد نظرت الى تبدل الحال بجملتها في القارة في شيء من القلق وأنها سعت الى مناهضتها . ومن محاولاتها في هذا السبيل ان سالسبوري ظهر في صيف ١٨٩٥ بفكرة تقسيم تركيا . فقد خاطب السفير الالماني في لندن بدون واسطة تقريباً وعقب السعي المشترك الذي وجهته الروسيا وفرنسا والمانيا ضد معاهدة شيمونوزيكي ببضعة اشهر ، تقول

خاطب السفير الالماني الكونت هتزفلد في تقسيم الامبراطورية العثمانية «المتعفنة» . وكان يتكلم بذلك في حذر و بلهجة ليست واضحة كل الوضوح لكنه خصص من أجزاء تركيا البانيا وطرابلس لتمنى بهما ايطاليا وكان يلوح انه يريد ان يجيب الروسيا الى رغباتها في الاستانة الى حد معين . وهذه النقطة الاخرى من شأنها أن تستهوي استهواء مدهشاً جداً . ذلك ان مبدأ ثابتاً من مبادىء السياسة الانجليزية كان منذ عشرات السنين وظل بعد ذلك : العزم على عدم السماح لدولة القياصرة بأن تصبح المتسلطة على المضايق لانها بذلك يمكن أن تشيع الاضطراب في علاقة بريطانيا بالهند . واذن فلا بد من افتراض ان الاقتراح كان يرمي قبل كل شيء الى أن يوقظ في أوروبا تلك المنازعات التي كانت خلافا لمصلحة انجلتره توشك أن تنام بعد إذ تحولت الروسيا عن الشرق الادنى الى الاقصى . وقد رد هتزفلد في الحال بحق إذ قال كيف يمكن أن يعتقد رئيس الوزارة البريطانية بامكان تقسيم الامبراطورية العثمانية بين ذوي الشأن «تقسيما وديا» . ولفتت برلين النظر الى أن سعى ايطاليا نحو البانيا وطرابلس يوجد بين النمسا وايطاليا هوة واسعة ويقضي من جراء ذلك على المحالفة الثلاثية . ثم رفضت هذه الخطة في عزم لانهم لم يريدوا أن تثار في صورة مفتعلة كافة مشاكل الشرق الادنى التي كانت اذ ذاك هادئة . وهكذا لم يلبث سالسبوري أن عدل موقفه وأن اعترف بعد ذلك بأنه لم ينتو أن يعطي الدردنيل للروسيين .

بعد ان رد ذلك الهجوم الخفي عن مركز القارة الجديد الذي كان في مصلحة المانيا اكثر من غيره ، لم تكن وزارة الخارجية الالمانية قد قطعت الامل بتاتا في أن تنضج انكلترة يوما لفكرة التحالف مع المانيا .

بيد ان رجال هذه الوزارة سلكوا للوصول الى هذا الغرض سبيلا معكوسة فجعلوا يظهرون الشدة لبريطانيا العظمى عياناً ابتغاء اقناعها بحولهم والتدليل لها على قوتهم وهم في هذا يحدوهم شعورهم بتحسن مركز بلادهم . من

ذلك انه لما ذاع في أواخر سنة ١٨٩٥ أن الانكليزي جيمسن غزا دولة البوير في جنوب أفريقيا هبت الحكومة الالمانية التي كانت معنية إذ ذاك بتمهد العلاقات الطيبة مع البوير تخشى أن تضم انكلترة بلادهم اليها، تطالب بالمحافظة على استقلال الترنسفال بدعوى أن لها هناك مصالح تجارية هامة تريد أن تصان . وفي نفس الوقت لمحت للندن بان لا حاجة بها الى المغالاة فى تقدير الخصومة القائمة بين فريقي الدول الاوروبية «لان هذه الخصومة خفت كثيراً فى الايام الاخيرة ، وان فكرة حل مابين هذه الدول من مسائل قائمة دون التفات الى المصالح الانكليزية قد تجد هوى فى انفس دوائر كثيرة اذا طرحت في صورة بارزة» ومعنى هذا ان المانيا تحذر بريطانيا العظمى بأن لا تتجاهلها . ثم لما جاء الخبر بأن البوير هزموا متطوعة جيمسن بعث الامبراطور غليوم فى ٣ يناير ١٨٩٦ الى كروجر بتلغراف كتب فى وزارة الخارجية يهنىء فيه رئيس الترنسفال بنجاحه في رد الاعتداء الخارجى عن استقلال بلاده فأثارت هذه البرقية فى بريطانيا العظمى سخطاً عظيما لان هذه البلاد كانت تعتبر البوير رعايا انكلترة فعدت هذا الامر عملا غير ودي وتدخلا غير مقبول . وسادت صحف الجزر البريطانية لهجة تنم عن « مرارة عامة وامتعاض عميق جداً » على أن برلين كانت تلطف بتأثيرها من شدة مطالب البوير التي كانت بعيدة المدى تذهب حتى الى الانفصال عن انجلترة واتزن هولشتين أملا فى أن يحمل فرنسا على السير مع المانيا وسعى فوق ذلك الى اشراك الروسيا أيضاً . رامياً من وراء هذا الي تحقيق فكرة الكتلة الاوروبية . لكنه لم يلق أذناصاغية أو قلباً يبادله الود فان بعض الصحف الباريسية الكبرى كان يذكر صراحة بالالزاس واللورين ويعلن أنه لاينبغي أن تعقد محالفات غير طبيعية .

وليس شك في ان هذا الحادث بحذافيره قد ساعد سالسبورى على تنفيذ خطته التي أعمل الفكرة فيها طويلا وهى التنصل بتاتاً من المحالفة الثلاثية . وذلك انه لما سعت النمسا لدى لندن في أوائل سنة ١٨٩٦ الى مد أجل الاتفاق

المعقود سنه ١٨٨٧ بين مملكة الطونة وايطاليا وانكلترا على شؤون البحر الابيض المتوسط وتوسيع نطاقه ، كان جواب رئيس الوزارة الانجليزية بالرفض وبذا تمت « العزلة المجيدة » التي لم تن الجزر البريطانية عن طلبها إذ قطعت تلك العلاقة المتراخية بالمحالفة الثلاثية وبتت صلة كانت تزداد مع الايام وهنا وكان أن وقع نقيض ما كانت برلين تأمله وتتمناه . ولقد جعل الامبراطور غليوم الثاني عقب ذلك يشير عبثاً لبريطانيا العظمى الى الاخطار التي تهددها من فرنسا ويدعوها الى الانضمام الى المحالفة الثلاثية .

لقد كان موقف الرفض الذي وقفته بريطانيا العظمى خطراً بالنظر الى ايطاليا بنوع خاص . فان هذه الدولة تنتمي الى دول البحر الابيض المتوسط قبل كل شيء . فلم يكن بدلها من الاعتماد على ما بين فرنسا وانجلترة من تنافر لتحاول بالاستناد الى هذه الناحية أو تلك تحقيق ماتطلبه . فلما سحبت انجلترا يدها منها أصبح يخشى أن ترجح كفة الذين يسعون فى ايطاليا الي توجيه السياسة الايطالية نحو فرنسا . وقد كانت ايطاليا متورطة في الحبشة فى حرب استعمارية عصيبة حينما أخذ اللورد سالسبوري ينفذ عزمه على التحول عن المحالفة الثلاثية . وكان يلوح فى الوقت نفسه كأنما تنشأ الرابطة بين انكلترة وفرنسا بعد ان عقد الفريقان اتفاقا في شأن سيام على انه قد أعقب ذلك بقليل أن اشتد التنافر بين بريطانيا وفرنسا فى البحر الابيض المتوسط إذ دفع وزير المستعمرات البريطانية تشمبرلين اللورد سالسبوري الى أن ينتهز فرصة وقوع قلاقل في الاقطار المصرية لتسيير حملة عسكرية في جنوب تلك الدولة التي كانت تحتلها بريطانيا العظمى . وقد صور عمله هذا بانه لشد أزر الجنود الايطالية في الحبشة فأرضى برلين كثيراً ، لكنه أسخط باريس التي قابلته بأشد مقاومة لانها كانت ترى أن سالسبوري انما يرمي الى تقوية مركز انكلترا فى مصر وجعل احتلالها لتلك البلاد أبديا . وقد انضمت الروسيا

الى باريس في موقفها هذا فاشتد بذلك الخلاف بين المحالفة الثنائية والجزر البريطانية ومع ذلك فلم يفض هذا الموقف الى احداث أي تغيير جوهري في سياسة سالسبوري ، كما ان انصراف الروسيا عن المسائل الاوروبية — وهو الذي تقرر كما مر بنا بالمعاهدة التي عقدت مع النمسا على الشرق الادنى — لم يكن له أدنى تأثير في رئيس الوزارة الانكليزية. فقد تعمقت انكلترا في وحدتها حتى لخص هوهنلوهه المستشار الامبراطوري في شهر فبراير سنة ١٨٩٧ وبمناسبة ثورة كريت ، مالقيته المانيا مع انكلترا ، في تلك الكلمات المرة إذ قال . « تعهد من جانبنا وحرية في العمل من جانب انكلترة . لقد كان هذا في هذه المرة كما كان في كل مرة العقبة التي تعترض طريق التفاهم . »

اننا لو لخصنا النتائج التي تمخضت عنها السنوات السبع التالية لاعتزال بسمرك منصب مستشار الامبراطورية لما كان لنا محيص عن تقرير أن مركز الامبراطورية الالمانية ساء بلا ريب . فقد ذهب عنها أمنها في القارة وهو الذي كانت تبز فيه غيرها . وصحيح ان الخطر الذي كان يتهددها من ناحية فرنسا والروسيا وتحالفهما معاً كان قد خف بتحول الروسيا الى آسيا لكنه كان موجوداً وظل كذلك . وقد فقدت المحالفة في حين شيئاً من أهميتها وان كانت قد ظل محتفظاً بها عدة للمستقبل هذا الى انه لم يمكن التغلب على ذلك الشقاق المشئوم الذي قسم أوربا الى فريقين . وفوق ذلك فان المانيا لم تجد بديلا من تعاهدها مع الروسيا بالتعاقد مع انجلتره . اذ كان الامر على النقيض من ذلك فتنصلت الجزر البريطانية من المحالفة الثلاثية ووقفت قبالة المعسكرين الاوربيين مستقلة عنهما تستطيع في المستقبل أن تختار بملء حريتها بين الفريقين من يكسبه انضمامها الرجحان . أما نظام المحالفات الثلاثية فقد كان فوق ما أصابه من ضآلة يزخر بتيارات مقلقة لم تكن في صالحه على مر الايام . فان ايطاليا التي كانت بادىء بدء تعلق أهمية كبرى على عقد اتفاق مع انجلتره أصبح يلاحظ عليها ميل بعينه الى تحقيق أغراضها في البحر الابيض المتوسط بالتقرب الى

فرنسا . ومملكة الطونه التي تركتها بريطانيا العظمى وحدها تعالج وقف التقدم الروسي في الشرق الادنى ، سرعان ما جعلت من ذلك الحين تفكر في جر المانيا حليفتها القوية في الشمال الى مسايرتها في تحقيق رغباتها . أما المانيا فكانت بالتأكيد تدفع هذا في عزم لكنه كان يخشى ان يأتي وقت إن عاجلا وإن آجلا تضطر فيه الى التساهل مع صديقتها الوحيدة المضمونة

ولاريب ان مصرفي أمور المانيا كانوا يجهلون المصاعب الهائلة التي كانت تكتنف مهمتهم . فقد أملوا أول ما أملوا أن تكون بينهم وبين انجلتره رابطة وثيقة وتركوا الروسيا من أجل ذلك قبل أن يبلغوا غرضهم . ثم لما تحالفت الروسيا مع فرنسا وبقيت انجلتره تتدلل حاولوا أن يحكموا صلاتهم بالروسيا من جديد وحلموا حتى بالمضي مع فرنسا . ومسلك كهذا ما كان ليخطر ببال ابداً لو انهم لم يغالوا في تقدير قوتهم .

كان «الطريق الجديد» الذي سارت فيه السياسة الالمانية بعد المستشار الامبراطوري الاول يختلف عن طريق هذا المستشار بقدر انطلاق رجال العهد الجديد الى ميدان السياسة العالمية غير المأمون وتوغلهم فيه بكل قواهم . وصحيح كل الصحة أن المانيا لم تكن بالنسبة لغيرها من الدول العظمى بل بالنسبة الى دول من الدرجة الثانية تملك في البلدان الاجنبية الا أراضي قليلة جداً ضئيلة النفع كانت تبعث اليها بما يزيد من أبنائها وتقضي فيها لبانانها من المواد الاولية . فقد كانت الصناعة في تلك الاثناء قد ازدهرت في بلادها وازداد سكانها وخرج تجارها يريدون أرض الله الواسعة . وكان روح التقدم والتوسع ، ذلك الروح الذي أوصل بلاداً أخرى الى طلب وامتلاك طائفة من المستعمرات الهائلة . يتطلب عملا ونجاحاً . ولم يكن هذا الروح سطحياً مفتعلا بل هو قد لازم قوة طبيعية نامية وخرج معها من أعماق أمة اتحدت سياسياً وجعلت تبتكر وتوجد وتنمو قوية لا يعتور مجهودها كلال . هذا الروح لم يلبث أيضاً أن انتقل بطبيعة الحال الى رجال كانوا في القمة وكانوا يديرون دفة

السفينة . لكنه جعل على الانظار غشاوة حالت دون استبانة قوانين الحقيقة الصارمة ، وحملت الناس على نسيان ان الدولة الالمانية كانت لاتزال في نظر الغير تلك الحديثة النعمة بين دول استحوذ عليها حب الاستعمار ، وانها وهي القائمة وسط القارة عرضة للاخطار بحاجة الى قاعدة أمينة واسعة ما أمكن ترتكز عليها قبل أن تقفز الى الفضاء المترامي الاطراف لكن المانيا بدل ان تفعل ذلك حاولت لثقتها الشعبية التي كانت تعظم على الدوام — أن تنتزع لنفسها كلما سنحت فرصة مركزاً صالحاً فيما وراء البحار غير مستندة في ذلك الا على قاعدة المحالفة الثلاثية . فأعلنت في همة وبصورة تنطوي على التسرع عن مطالبها المتواضعة حقاً ولم تجعل بالها الى أنها بذلك قد غيرت انفس أقرب جيرانها اليها وأثارتهم وهم الذين كانوا يسهرون على أموالهم يحدوهم حسد الغني لا حسد الفقير والاول أشد خطراً وأبلغ مضرة . وليس شك في أن الالمان كانوا على حق من جهة المبدأ في أنهم أرادوا هم أيضاً لانفسهم شيئاً حيث رأوا الغير يجمعون كل ما أمكن أن تصل اليه أيديهم . لكن الصورة التي كانوا يعلنون بها مطالبهم للناس كان يصحبها شيء من ضجة الصبيان الذين لم تعركهم الايام فكانت هذه الضجة تؤذي اليافعين حيث لم تكن هنالك حاجة الى ازعاجهم . ومن الامثلة البينة على ذلك ، المظهر الذي ظهرت به برلين في مسألة الترنسفال ، فان مسلكها كله كان من شأنه أن يجعل الغير يرون فيها لازمات حديث النعمة وصفاته وهم الذين كانوا لاينفكون عن وصفها بهذا الوصف فسهلت بذلك على مناظريها الذين كانوا ينفسون عليها مركزها تسوبيء سمعتها وتصويرها في صورة المكدر للسلام ، الامر الذي كانت بعيدة عنه كل البعد .

لقد كان طبعاً بعض القادة يخلعون من لونهم وأسلوبهم على السياسة الالمانية بمقدار كبير . أما العالم فكان لايرى في المقدمة الا الامبراطور غليوم الثاني ذلك الملك الفتي الذي أقال بسمرك من عمله . ولقد عنيت دعاية خصومنا

فى الحرب العظمى بتصوير ذلك السيد فى صورة المستبد الذى لايني يحاول اخضاع أوربا بل العالم كله لو أمكن لمشيئته وسلطانه . وليس في هذا كله ذرة من الحقيقة فان غليوم الثاني كان في الواقع على نقيض تلك الطبائع التى تتطلب السيادة والتوسع في السلطان فى عزم ثابت دون أن يكون لصالح الغير فى نظرها أي اعتبار . فقد كان غليوم الثاني رجلا حمله استعداده الخيالى الى الاعتقاد بأن الله أجلسه على العرش فدفعه يقينه بقدسية رسالته الى أن يطلق العنان لحالاته النفسية الدائبة وانفعالاته القوية الكثيرة التبدل . وهو لم تكن تنقصه بحال من الاحوال غريزة سليمة بل ان نفس الحواشي المرذولة التى كان يجب أن يعلق بها على أوراق الحكومة محتذيا فى ذلك مثال جده العظيم فريدريك الثانى كانت تنم عن أنه كان يتبين الصواب من اللحظة الاولى . لكن الذي كان ينقصه هو ضبط عنان التفكير الطليق والوضوح الذي يجب أن يلازم الحساب السياسى المنطقي . فكان أن جعل الناس والحوادث التى كانت تفعل في شعوره تؤثر عليه وتطوح به . فهو كان اذن ضعيفاً أكثر منه قويا . وكثيراً ما كان يقصد بالكلمات الضخمة التى كان ينطق بها وحركات العظمة التى كان يبديها اخفاء قلق يساوره .

ولقد كان فى نظر العالم المحيط به ككل الذين يستحوذ عليهم الشعور بأنهم فوق غيرهم مرتبة ، لا يمكن التكهن بما يمكن أن يصدر عنهم . فقد كان فى المجتمع خليقاً أن يأسر بلطفه القلوب كما كان ممكناً أن يسيء الى الانفس اساءة بليغة . وقد سدت عليه الطرق الى العالم الحقيقى رغباته وآماله وعواطفه الشخصية الجامحة . ولا شك مطلقاً فى انه كانت تحدوه ارادة شريفة لعمل الخير لامته كما كان مؤكداً انه كان من انصار السلام الصميمين . فانه في نفس الوقت الذى كان يتكلم فيه عن سيفه كان يفعل ذلك تهيباً من تجريده ولانه كان يأمل أن يكفى الانذار بقوة المانيا الحربية دون استخدام هذه القوة . ولم يكن يفكر وهو يفعل ذلك في أن من السهل أن يستغل من لا يريد وزله الخير

هذه الكلمات ضده فيصورونها على انها تصريحات جدية تكشف عن رغبة خطرة في الحرب . ولو انه كان يرمي حقيقة الى حرب أو غزو لما فوت على نفسه كل الفرص التي أتيحت له أيام حكمه للدخول في حرب يمنع بها فرنسا من أن تقوى على مر الايام على مقاومته . فلقد كان يبغي السلام لان الاقدام على عمل حربي كبير لم يكن يتفق وطبيعته الرقيقة المتأثرة . وأخيراً فأن للشعب الذي ظل على الرغم من كل انتقاد يعترف به رئيساً له وسيداً مدة ثلاثين عاما وعليه واجباً في أن يسأل الى أي مدى كان الامبراطور مسئولا عن اضعاف مركز المانيا . فان الواقع أنه لم يكن له في سياسة بلاده الخارجية ذلك التأثير الذي كان ينسب اليه . فانه كان هناك كما أسلفنا الاشارة رجل آخر هو صاحب الكلمة النافذة في تلك السياسة والمصرف الحقيقي لها في خلال خمس عشرة السنة التي تلت انسحاب بسمرك . وذلك المصرف الحقيقي الذي كان يعمل من وراء ستار هو فريتس فون هولشتين فان هذا الرجل كان في وزارة الخارجية على نقيض الامبراطور . فلم يكن يظهر مطلقاً بل كان يحيا حياة رجل معتزل يزيده تقدم السنين ابتعاداً عن الناس وتجنبا لعشرتهم. هذا الرجل كان يرفض الرتب والالقاب ويقنع بمركز متواضع جدا بالنسبة لغيره : مركز المستشار الخاص . والذي كان يحركه ويستثيره الى العمل هو شعوره بالسلطة التي كان يملكها في الخفاء لانه كان في الواقع يدير من غرفة عمله الهادئة دفة السياسة الالمانية ويصرف مصائر الامه من هذه الناحيه. فمنها كان يكتب عن مسائل اليوم بهمه لا تعرف التعب بيانات ومذكرات كانت ترسم طريق العمل لرؤسائه الذين كان عليهم أن يظهروا أمام الجمهور . ومنها كان يتبادل الرسائل السرية الشاملة مع أهم الممثلين الالمان في الخارج وأعظمهم شأناً ليكونوا هم أيضاً على علم بافكاره ونياته فيتصرفوا وفاقا لها .

وقد أدى به شغفه الحار بالتسلط على الغير وتحاشيه الاختلاط بمن هم حوله الى اساءة الظن تدريجا باخوانه وعدم الثقة بهم حتى بات هذا له كالعلة

تلازمه . وقد لجأ من أجل ذلك الى الدسائس والانتقام حتى أصبح خصومه وأصدقائه على السواء يخشونه . وليس شك ان في هولشتين كان ذا عقل راجح على غيره من العقول ، لكن هذا العقل لم تكن تغذيه العواطف الحارة أو يستمد قواه من حياة قوية النبض بل كان عقلا نما لنفسه فكانت السياسة في نظره غير ما كانت في نظر بسمرك ، ليست الفن الذي يدرك به المرء ما هو ممكن لان الفن يتطلب غريزة تطابق الشعور وادراك الممكن يتطلب خبرة عظيمة تتم لصاحبها بعد أن يتعرض كيانه للعب الحوادث ويشهد هذا الكيان تطوراتها . أما لهولشتين فكانت السياسة حسابا شديداً موزونة دقائقه وعملا جامداً يكاد يكون عامياً له قوانينه وقواعده التي يجب التزامها مهما كانت الظروف . وسر تفوقه على من عداه من الساسة الالمان في وزارة الخارجية هو في انه كان يلم كل الالمام بالاوراق الموجودة فى تلك الوزارة وانه كان من تفكيره النشيط بحيث يفهم الحاضر بدقة ويزن شؤونه وزنا دقيقا . أما الامور التي لم تكن مما توزن أو يدركها العقل والتي تلعب مع ذلك دوراً كبيراً فى الحياة السياسية والعادية على السواء فلم يكن يحفل بها . وقد كان بالتأكيد وطنيا عن عقيدة ورجلا مخلصا للمهمة التي انتزعها فى الغالب لنفسه والقاها على عاتقه . لكنه من البين جداً ان هذا لم يكن كافيا له لان يكون كفأ للمصاعب الهائلة التي كانت تلازم المحافظة على مركز المانيا والدفاع عنه . وبغض النظر عن أن طلب هولشتين للسلطة كان يؤثر فى حكمه فان أسلوبه الجامد الغريب المنطوى على التكهن والمضاربة والذي كان يحاول به معالجة الحوادث ، كان وبالا على السياسة الالمانية .

وان المرء ليتساءل اليوم بحق : كيف أمكن أن توضع أمور الدولة الالمانية الفتية التي كانت عرضة لان تعبث بها الاحداث والتي أحاطها بسمرك بسياج كامل يقيها الاخطار في مثل هذه الايدي فلاينزع الامر منها بمجرد وقوع

أول خطأ ؟والجواب عن هذا ليس فقط في ذلك الجهل بالامور السياسية وعدم الاهتمام بما كان يجري ، فان السواد الاعظم لم يكن يدرك من الحوادث الحقيقية الاظلها الباهت الذي كانت الصحف تلقيه فيما بعد ، بل ان العارفين أيضا الذين كانوا مطلعين على خبايا الامور لم يكن عملهم يعدو أن يهزوا رؤوسهم كلما جد أمر دون أن يحتجوا عليه احتجاجا فعالا في حين أن كبار الساسة كانوا مطويين في نظام هولشتين .

وأذن فايضاح ذلك اعمق مما اسلفنا . فهو يطالعنا من نظرة نلقيها على ذلك العصر بأكمله . وقد تناولنا الكلام عن النهضة الاقتصادية في تلك السنين التي بحثناها ورأينا كيف تفتح لالمانيا عصر من الثراء المتزايد . فعظم شأن الاهالي الذين كانوا في بداية القرن يحيون حياة متواضعة محدودة ، وازدادت رفاهيتهم وأنتجت الصناعة مشروعات عظيمة بفضل جماهير العمال ، وأحكم التاجر صلاته بالعالم بأسره ابتغاء تصريف بضاعته . غير ان هذا التطور بأكمله كان يتجه أتجاها واحداً : الى الخارج ، الى الفضاء ، الي أرض الله الواسعة . وكان التطور فتيا متهوراً لا تسنده تقاليد أو تدعمه أدمغة . فلقد نسي شعب الشعراء والمفكرين احلامه السابقة لكنه استبدل بتلك الاحلام السابقة مثلا عليا كان قد فات أوانها فلم تعد تصلح لذلك الزمن . وقد اهتدى الى قبس من الحقيقة فاندفع الى الناحية الجديدة نابذاً في الوقت عينه كل قديم . شعاره الطلب والتقدم والرقي والنفوذ يعترف بها في كل مكان ويوعظ بها على رؤوس الاشهاد ، فكان ان نشأ عن ذلك شيئان : ظهور امام العالم في غير تفكير و بعبارات ضخمة عريضة ، وخروج اليه في صورة مستفزة في غير ما حاجة الى الاستفزاز . هذا الى تبجيل هائل للعقل الحاسب الذي كان يلوح انه القائد الامين الى النجاح . وقد كان العقل هو الاله الحقيقي لذلك العصر ، عليه أن يغزو الالهة القديمة ويثل عروشها لانه بمعونته قد أصبح السير في الطريق الجديد الى

الحقيقة سيراً ميسراً . أما أحب بنات هذا الاله وهي الميكانيكا التي خلقت السكك الحديدية والبواخر وآلاف وسائل الراحة والكسب فقد حلت بمعجزاتها المحسوسة محل معجزات الايمان التي سادت فيما مضى من الزمان .

وآمن دلالة على كيان عصر من العصور هو الاسلوب الفني ، فهو الذي يعكس وجه الجيل الحقيقي لانه يرينا كيف استطاع الجيل أن يكون قالبه الداخلي ويعرضه . أما عشرات السنين التي نتناول الكلام عنها هنا فلم تلد إلا أسلوباً ممجوجا خلواً من الذوق . فالأدب والتصوير تحولت مدارسهما سراعا الى تمجيد الواقع وخلف المذهب المادي مذهب الريالزم وباتت العلوم الطبيعية باعتبارها الوحيدة التي تركن اليها لانها ترتكز على حقائق محسوسة نوعا من الديانة .

وطبيعي أن تسري هذه الحركة التي وصفناها الى ماحولها . بيدأنها وجدت في المانيا تحمساً خاصاً يدل على سلامة النية ، وظهرت فيها في صورة بارزة لان الشعب الالماني كان يعيش قبلها في عزلة المستضعف الحالم فبات يسمع لاول مرة بعد قرون صيحة الدعوة الى القوة تحملها الريح الجديدة . وأصبح ماصار عند الغير عادة أمينة طبيعية ونعني به التوق الى التوسع والكسب والوجود العالمي ، يؤثر في دولة وسط أوربا التي ظلت طويلا مهمومة ممزقة كعقيدة جديدة في كيان وهب الالمان أنفسهم له في مثل نشاط الصبى وعدم تبصر الشباب . فلم يلبثوا أن أساءوا فهم ريالزم بسمرك فآنا تراها منهم مادية وآونة مضاربة لم يعمل فيها حساب دقيق . وهكذا أصبح الشعب بأسره لايخلص لروح مؤسس الجمهورية فكان لجميعهم يد في التحول حتى هذا الذي تم في مصير البلاد السياسي .

هـذا هو السبب الحقيقي في أن الالمان لم يفهموا الغلطات التى ارتكبت وأن الذين ارتكبوها كانوا أبناء حقيقيين للوسط الذي كانوا يعيشون فيه ويجب ليكون النقـد عادلا أن لايقتصر على الافراد بل أن يتسم للعصر كله فانه بذلك تكون النظرة الى الماضى ذات معنى عميق للحاضر .

obeikandl.com